القيمة الإنسانية عند « رالف بارتون بيرى »

دكتور / محمد عبد الحفيظ الأحول
مدرس بقسم الفلسفة بكلية الآداب

المقدمة :

تستحوذ كلمة القيمة على اهتمام الفيلسوف الذى يبحث فيها ، ويستخدمها بدقة ، حتى يتسنى له تقديم فلسفة للقيم متناسقة ، و لا تحتوى على متناقضات ، و يتوقف ذلك بالطبع على تحديد ما تعنيه كلمة القيمة . و يختلف مفهوم القيمة فى مجال الفلسفة عنه فى مجال آخر ، بل إنها تختلف من فيلسوف لآخر طبقا لفلسفته و منهجه فالقيمة هى حلقة وصل بين الذات و الموضوع ، لأن قيمة الشئ تكمن فى علاقة ذلك الشئ بإنسان معين ، فعندما أقول ان لهذا القلم قيمة عندى ، عندئذ هناك طرفان القلم و شخصى و قد ارتبطا بالقيمة . فقيمة الشئ ترتبط بمدى اهعتمام الانسان به ، فالشرط الاساسى هو فى العلاقة التى تربط بين الانسان و الشئ .

معنى هذا أن القيمة لا معنى لها إذا انفصل الشئ عن الاهتمامات الانسانية ، و على هذا فإن كلمة القيمة لا تعدو كونها اسما يطلق على «علاقة» و لا تمثل (كائنا) بذاته ، اذن فالقيمة ليس لها معنى بدون الانسان و هى التى يخلعها الانسان على الشئ فالقيمة اذن عند (بيرى) قيمة انسانية . والانسانية التى يتمسك بها و يدعو الى احترامها ، هى الانسانية القادرة على تحقيق التقدم ، ولن يتسنى ذلك الا من خلال العمل المتواصل الذى يشترك فيه الجميع ، فى بيئة تسودها الحرية أو الاختيار المستنير . و غالبا ما ينظر الى أصحاب الدعوة الانسانية على أنهم أصحاب دعوة مناهضة للدين . حيث فهم كثير من المفكرين الغربيين أن الدين لا يساعد على تقدم حضارة ، و لا يحترم إنسانية الانسان و يضحى بالحرية . و لكننا نجد (بيرى) يؤكد على عدم وجود تناقض بين الدعوة الانسانية و بين احترام القيم الدينية .

أولا : مفهوم القيمة :

تتعدد المواقف و تختلف المصطلحات و تتباين الرؤى طبقا للتخصصات المختلفة و الاهتمامات الانسانية المتنوعة . فهناك العديد من الكلمات التى يستخدمها الانسان بلا اهتمام ، و فى المقابل هناك من الكلمات التى يستخدمها بدقة و يحدد ما ترمز اليه ، و تمثل محوراً أساسيا فى مجال تخصصه . و لذا فى مقدورنا بسهولة أن نتعرف على المتخصص فى مجال معين من مصطلحاته التى يستخدمها بوعى . فعالم الطبيعة يستعمل كلمة « الذرة » و يعى تماما ما ترمز اليه ، و الرياضى على دراية تامة بأهمية الأرقام ، وكذلك الاقتصادى عندما يستخدم كلمتى العرض و الطلب . و لذلك نجد أن كلمة القيمة لا يقتصر استخدامها على الفلاسفة ممن لهم اهتمامات بالقيمة و بما تعنية ، ولكن كثيرا ما يستخدمونها بشكل عفوى يفتقر الى الدقة ، و من الطبيعى أن يستخدم الانسان غير المتخصص . « كلمة القيمة » استخدامات متناقضة . نعم تلك هى السمة التى تميز الانسان غير المتخصص، و ان كان غير المتخصص يستخدم كلمة « القيمة » بشكل غير دقيق ، لا يعنى هذا أن تلك الكلمة قاصرة على استخدام الفلاسفة لها ، و لكن نجد مجالات أخرى متخصصة أخذت كلمة «القيمة » تستحوذ على اهتماماتهم و لها معنى محدد و دقيق لديهم ، نجد ذلك لدى المتخصصين مثلاً فى علم الاجتماع و النفس و العلاج النفسى .

و من المثير حقا أن نجد بعض الفلاسفة يتساءلون عن القيمة بطريقة تعنى اننا قد توصلنا الى تعريف دقيق للقيمة و لم يعد متبقيا سوى توجيه النظر الى ذلك التعريف . يتضح ذلك من خلال السؤال الذى يطرحونه عن القيمة الا وهو ، ماذا تعنى القيمة؟ و من المتفق عليه حقا ، ان للقيمة تعريفات متعددة ، و لا نستطيع ان نصل الى نتيجة عن طريق سرد التعريفات المتعددة للقيمة . و من المناسب حقا كما يؤكد « بيرى » ان لا نقوم بمثل هذه العملية المتمثلة فى سرد المعانى المتعددة للقيمة ، و قد ادت القواميس تلك العملية على أكمل وجه و لا

حاجة بنا الى تكرار ذلك . و لكن ما ينبغي علينا أن نقوم به هو تبني معنى محدد للقيمة سواء كان موجوداً من قبل ، أو كان من ابتكارنا ، فالمهم أن نقدم معنى محدداً لمصطلح القيمة .

فالانسان بوسعه أن يضفي على المصطلح المعنى الذى يريده ، و لكن المشكلة ليست بهذه البساطة ، فالمسألة ليست خاضعة للأهواء و النزوات . اذ تحديدنا لمعنى المصطلح بهذه الطريقة يقدم منطقا مقلوبا يتعذر معه تقدم الانسانية ، و لا يرقى المصطلح عندئذ الى المساهمة فى تقدم المعرفة ، علاوة على عدم أهميته . فالانسان الذى يذهب الى أن القيمة يعنى بها (الحروب الصليبية) مثلاً بهذا المنطق لا يستحوذ على الاهتمام و لا يلتفت اليه إنسان ، و الموضوع لا يخرج عن كونه دعابة لا ترقى الى مستوى البحث . و لذا ينبغي ان يكون هناك معيار محدد يتم من خلاله صياغة التعريف « و طبقا للتعريف المقترح ـ ان القيمة هى شئ ـ أى شئ له قيمة ، أو يعتبر قيما فى المعنى الاساسى عندما يكون موضوع اهتمام أو نفع من أى نوع أو أى شئ قيم بذاته فهو موضوع اهتمام أو نفع فقيمة السلام تكون فى خواصه المتفق عليها من خلال النفع الذى ينطوى عليه . و من ثم تعرف القيمة بالقاس الى الاهتمام ، ويتوقف معناها تبعا لذلك على تعريف اخر و هو تعريف الاهتمام . و التعريف المقترح هاهنا أن الاهتمام هو سلسلة من الاحداث يتحكم فيها توقع نتيجتها »[1] .

و طبقا لما أشار اليه « بيرى » و اقترح أن يقدمه كتعريف للقيمة ، فى حاجة الى مزيد من الشرح و التحليل ، و لكن فى استطاعتنا أن نقتصر عليه الآن لاحتوائه على الغرض المطلوب . و عند الهجوم على التعريف ينبغي علينا أن ننظر اليه من خلال توظيفة للكلمات ، و من حيث دقة الأفكار و وضوحها و أهميتها ، و من حيث قدرتنا على التحقق من التعريف ، و لن يتم ذلك الا بارتباطه بحقائق معينه فى الحياة « فكلمتا القيمة و الفائدة اللتان نستخدمهما فى تعريفنا الحاضر هما اسمان منقولان ، و بالرغم من أنهما أكثر تحديداً هنا ، الا أنهما

ينبغى أن نحكم عليهما من خلال تاريخهما و قدرتهما على الإيحاء . و فى ضوء الاستخدام الحالى هلى يصلحان كمؤشرين يركزان المناقشة على ميدان معين من ميادين البحث » (٢) .

و اذا كنا قد أشرنا الى كلمتى القيمة و الفائدة فعلينا أن نتناولهما من خلال تاريخهما لنتعرف على مدى صلاحيتهما فى ميدان من ميادين البحث . لنتناول أولاً كلمة القيمة و نتتبع مدلولها . ان بداية استعمال كلمة القيمة فى الفلسفة الأمريكية يرجع الى تأثير « هوجو منستر برج » أحد اتباع مدرسة فيخته و الذى أخذت لديه كلمة القيمة معنى سامياً متجاوزاً مفارقاً ، لكل ما هو حسى ، و لذا أصابه الفزع و الذعر من استخدامها بشكل ترتبط فيه بأمور الحياة وبالحقائق العامية للتجربة الحسية و لم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أن علماء النفس قد استعملوا كلمة القيمة فى موضوعات تخصصاتهم بشكل يعتبره «منستر برج » استباحية و تدنيا لسموها . و منذ بداية القرن العشرين انتشر استعمال كلمة القيمة و انتهى تماما الاستعمال السامى المفارق لدى اتباع الفيخيته . و امتداداً لما سبق نجد ان تقدم المجتمعات الإنسانية و تعدد الدساتير والعقائد ، أخذت الإنسانية تشير الى عقائدها و دساتيرها على انها تحتوى على «قيمة » . و على الرغم مما حققه العلم من تقدم للإنسانية الا أنه فشل فى تحقيق السعادة للإنسان . بل حدث العكس تماما فبتقدم العلم تقدمت وسائل ابادة الانسان لأخيه الإنسان و فشل العلم فى تحقيق الوئام ، و انقاذ الإنسانية من الحروب المدمرة ، و قد ارجع الكثير فشل العلم فى ذلك الى تجاهله للقيم «فكلمة القيم اذن اسم حسن بسبب تاريخها ، لأن هناك شيئا مشتركا بين الواجب و التقوى ، و الفائدة ، و المثل ، و القوانين . و فى الوقت ذاته تشير الى تلك الناحية من الحياة الإنسانية التى نستعمل لها عبارات المدح و هى تشير ايضا الى المعنى البراق لصفات مثل حسن ، و خير ، و الحق ، و ينبغى ، وجميل ، و مقدس ، و مثل الكلمات المعبرة عن السعادة و الحضارة ... و تعتبر

كلمة قيمة هى أفضل كلمة تشير إلى المعنى بمرونة » [٣] .

و الكلمة الثانية المستخدمة فى التعريف المقترح للقيمة هى كلمة فائدة وتلك الكلمة المختارة هاهنا كلمة قديمة ، و قد وقع الاختيار عليها ، لأنها أفضل كلمة من بين الكلمات القديمة ، فهى فى استطاعتها ـ كما يؤكد بيرى ـ أن تحل محل مجموعة من الكلمات مثل « الرغبة » ، « الأمل » ، « الحب » وكذلك مضادات هذه الكلمات ، علاوة على أنها تشير الى معنى شامل يباين مجموعة من الكلمات مثل الاحساس و الادراك و التفكير الى آخره . و اذا استخدمنا كلمة « فائدة » بهذا المعنى فيجب علينا أن نستبعد بعض المفاهيم الضيقة أو الواسعة . و الاستخدام الواسع لكلمة فائدة مرادف للانتباه ، فالشئ المفاجئ أو المثير يلفت الإنتباه . و امتداداً لما سبق فإننا اذا ذكرنا اسم شخص فجأة أو اذا سقط شخص فجأة مغشيا عليه ، فإن ذلك بلا شك ينبه السامع ويستحوذ على الاهتمام و الفائدة بهذا المعنى ترتبط بمعنى الرغبة و الشعور . ولكن هناك فرق بين الانتباه المجرد كانتقال العين أو تركيز الشعور و بين الاعجاب و الرغبة التى قد تكن مصاحبة أو تابعة له . و اذا انتقلنا من هذا الاستخدام الواسع لكلمة فائدة الى ما نطلق عليه فى بعض الاحيان بالاتجاهات الوجدانية ، فإننا بذلك نتناول الكلمة بمفهوم ضيق . فالإشارة الى مصلحة الشخص أو الانانية فإنها تشير الى حالة من الحالات الخاصة « و على ذلك فإن كلمة فائدة هى اسما دالا على مجموعة من الأسماء ، مثل الحب و الكره ، الأمل و الخوف ، الاشتهاء و النفور ، الرغبة و عدم الرغبة ، و عدد اخر لا يمكن تحديده من الاسماء المتشابهة . و ما ترمز اليه كل هذه الأسماء ظاهريا هو ما ترمز اليه كلمة فائدة من حيث مدلولها الظاهر ، انها تلفت الالنتباه الى ما تلفت اليه هذه الاسماء فى كثرتها » [٤] .

ينبغى على التعريف أن لا يكون اسما مجرداً فحسب و لكن فى استطاعتنا ادراكه ، تمشيا مع أنه يقودنا الى اثبات معنى مفهوما . ان التعريف قد يحتوى

على معانى قديمة لخلق معانى جديدة ، و بالرغم من حرية العقل فى الادراك ، و قدرته على ادراك موضوعات لا نهاية لها سواء كانت مثالية أو مجردة ، فإن ذلك الادراك يخضع لشروط متضمنة فى طبيعة الادراك . تلك هى الشروط الشكلية للتعريف ، التى ينبغى أن تحققها أية نظرية حتى يتسنى لها أن تصبح نظرية ، وذلك قبل أن تحقق . يتمثل ذلك فى ، هل كل هذه الأفكار المستخدمة معقولة هاهنا ؟ كيف تترجم الأقوال الخاصة بالمنفعة الى أقوال خاصة بالقيمة ؟ و هل ستحتوى هذه الترجمة على تناقض ؟ و هل هى مثمرة أم مجدبة؟

و بدلا من أن نستمر فى مثل هذه التساؤلات و ما يتضمنه ذلك من عناء، و جدنا أن نتناول بعض الاعتراضات حتى يتسنى لنا أن نقدم تعريفا محدداً دقيقا لمفهوم القيمة . من هذه الاعتراضات أن الكلمات مثل كلمات الخير و الشر التى هى من نوعية كلمة « القيمة » ليس لهـا معنى فكرى و لكن معناها عاطفى. و بمعنى آخر ان الجمل التى تحتوى على مثل هذه الكلمات فهى ليست جملا و انما هى تلفظ . فليست لها موضوعية علاوة على أنها ليست صحيحة و لا زائفة ، و لكنها تعبر عن اتجاه الفرد الذى ينطق بها ، و عن رغبته فى ان يجعل الآخرين يأخذون موقفا مماثلاً لموقفة . فهى مقنعة و لكنها ليست معرفية . فكلمة (خير) لو استخدمناها فى وصف أى فرد فإنها لا تعكس حقيقة الفرد ، و لكنها تعكس حقيقة موقف من تقوه بها تجاه هذا الفرد . و ليس هناك أدنى شك فى ان مثل هذه الكلمات تستخدم عامة بقصد المدح أو الذم . فالمقالة السياسية أو قصيدة الحب لا تشبه القانون العلمى أو النظرية الرياضية . و معظم التصريحات اللفظية لها معنى عاطفى و معنى موضوعى . و الاختلاف فى المعنيين فى أحقية أحداهما أن يكون التعبير المناسب . و التعبيرات التى تستخدم كلمات مثل الخير و الشر ، قد تنقل أفكاراً موضوعية ذات معنى صريح أو ضمنى . و يقدم « بيرى » الادلة التى تعضد موقفه فنجده يذهب الى اننا اذا حكمنا أن « القديس فرانسيس » رجل خير يعنى ذلك أنه قد سلك

سلوكا يعكس حكمنا عليه ، يتمثل فى اطعامه للطيور ، و من ثم يعد هذا تعبيراً عن محبته للكائنات الحية التى تؤكد الحقيقة الدالة على خيره . و لنفترض أن أ من الناس يتخاطب مع ب فى أن لنكولن رجل خير لأنه يبغض الحرب و يعطف على الجنود و يعتق العبيد . فإن أ لا يؤكد على اعجابه و احترامه (لنكولن) و عن رغبته فى أن ب يشاركه نفس الاحساس فحسب ، و لكنه يوحد كما يؤكد «بيرى » بين فكرة الخير و فكرة الانسانية ، ليصف بها « لنكولن » و يعد هذا دليلا موضوعيا مستمداً من سلوك لنكولن . يؤكد هذا أن كلمة الخير كما أن لها معنى عاطفياً ، فقد قدمنا من الادلة ، التى تؤكد على موضوعيتها . و هكذا نجد أن المشكلة ليست فى موضوعية كلمات مثل « الخير » و « الشر » و لكن المشكلة تكمن فى تعددها و تنوعها ، فقد تعنى شيئا فى بعض الأحيان ، و تعنى شيئاً أخر فى أحيان أخرى . و لذا نجد أن الوظيفة الأساسية لنظرية القيمة هى أن تحدد المعنى الثابت لمثل هذه الكلمات « و لا يوجد مبرر على الاطاق يجعلنا نقصر نظرية القيمة على معان سبقت معرفتها ، و عليها أن تأخذ على عاتقها تنظيم الأفكار و هى الوظيفة الأساسية لنظرية القيمة ، و نظرية الطبيعة ، و نظرية الكيمياء ، و باختصار هى أساس كل النظريات » (٥) .

و من الاعتراضات التى توجة الى كلمة « القيمة » أن معناها لا يمكن تحليله اذا نظرنا اليها من منظور فكرى أو موضوعى . و من وجهة نظر معينة فإن « القيمة » لها بعض المترادفات مثل الخير و الصدق ، و لهذا فهى « غير طبيعية» و ذلك يعنى أنها ليست شيئا عقليا أو ماديا . و من هذا المنطلق لا يمكن ملاحظتها من خلال التجريب ، و هذا يؤكد الزعم لدى البعض أن الوسيلة الوحيدة التى نستطيع أن نراها من خلالها هى الرؤية العقلية ، و عند رؤيتها بعين العقل عندئذ تكون فريدة و غير قابلة للتحليل . و على الرغم مما كتب دفاعا عن هذه الفكرة أو هجوما عليها ، فإنها لا تستدعى مثل هذا الجدال . لأن القيمة التى لا يمكن تحليلها ، لها وجود داخل نطاق الرؤية العقلية ، مما يترتب عليه أن

يكون ممكنا بعد مجهود كبير من رؤيتها ، و ليس أمام الانسان من منطق سوى منطق الرفض اذا لم يوفق فى التوصل اليها ، و لا سيما أن الذين يتناولون هذه النظرية لا يتفقون فيما بينهم . و هناك وجهة نظر أخرى تذهب الى أن القيمة هى صفة أو مجموعة من الصفات غير المحددة أو غير قابلة للتحليل مثل جميل ورائع و مذهل .... الخ . و على الرغم من الاعتراضات المتعددة التى قام بها «بيرى » بسردها و ذلك فيما يتعلق بالمواقف الرافضة لإمكانية تحليل أو تحديد لكلمة القيمة نجده يذهب الى القول « بأنه لا يوجد شئ قابل للتحليل هو قول معقول ، و ذلك لأن التحليل كما يفترض يترك الأشياء كما هى ... و اذا طبقنا هذا على القيمة ، فمن نافلة القول أن نتعامل مع القيمة و أن نذهب الى أنها غير قابلة للتحليل » (٦) .

و هكذا بعد أن سردنا بعض الاعتراضات ، و جدنا من الضرورى أن نقدم تعريفا محدداً للقيمة . و التعريف فى النهاية ينبغى أن يكون وصفيا ، و لا يحتوى على تناقض . نجد « بيرى » يستعمل كلمة « علاقة » و على الرغم من أنه يصفها أى « العلاقة » بأنها لا لون لها و سيعترض البعض عليها ، و لكنه يؤكد على فائدتها . فالقيمة كلمة تطلق على « علاقة » و لا معنى لها اذا انعزلت عن الانسان فهى لا تمثل كائنا قائما بذاته فقيمة الشئ هى فى علاقته بإنسان معين، و الشئ بذاته بدون انسان لا قيمة له ، فالقيمة إذن يخلعها الإنسان على الشئ عندما يكون موضع اهتمام أو نفع . كلمة « القيمة » اذن شبيهة بأسماء العلاقات ، فإذا قلت أن « أحمد » ابن « محمد » كان هناك رجلان فقط ، أما كلمة « ابن » فهى علاقة تربط بينهما . و بهذا ننظر الى كلمة « القيمة » على أنها حلقة وصل بين الموضوع و الذات « فكثير من الصفات للأشياء المتداولة علاقية ، و لا نزاع فى أن الاخ و الأبن صلات علاقية . بمعنى آخر عندما نصف انسانا بأنه أخ أو ابن فإننا نقرر علاقة انسانن بإنسان آخر . و طبقا لهذه النظرية ، فعندما نصف شيئا بأنه خير أو شر فإننا نصفه من منظور العلاقات أى

حسب علاقته المباشرة أو غير المباشرة ، بشيء أخر أى طبقا للمصلحة » [٧] .

و استخدام « بيرى » لكلمة « علاقة » على الرغم من وصفة اياها بأنها لا لون لها يذكرنا بموقف استاذة « وليم جيمس » حين أراد أن يؤكد على تمسكه بحرية الانسان و وجد أن كلمة الحرية قد أصابها التشوية و التحريف فقرر استخدام كلمة « مصادفة » و لذا نجده يؤكد على « أن هناك كلمتين تعوقان تلك المجادلات الكلاسيكية و لابد من التخلص منها فوراً اذا كنا نريد احراز أى تقدم . احداهما كلمة مدح و هى الحرية و الأخرى كلمة تحقير و هى المصادفة . و اننى أرغب فى التمسك بكلمة مصادفة و أرغب فى التخلص من كلمة حرية » [٨] .

و هذا يؤكد على أن الاتجاه البراجماتى لا يتردد فى استخدام الكلمة التى تساعده فى التوصل الى النتيجة التى يسعى اليها بصرف النظر عن الكلمة ومدلولها لدى الفلاسفة . و ليس بخاف علينا كم الاعتراضات التى توجه الى كلمتى علاقة و مصادفة فهى لا تجد قبولاً لدى الكثير من الفلاسفة و لا سيما العقليين . و لكننا كما نعلم ان الاتجاه البراجماتى يظل المعول الأساسى النتائج العلمية . حيث أن البراجماتية هى « اتجاه النظر بعيداً عن الأشياء الأولى ، المبادئ ، النواميس ، و الحتميات المفترضة ، و النظر تجاه الأشياء الأخيرة ، الثمار و النتائج و الحقائق » [٩] .

و إذا كنا قد أشرنا الى أن ، القيمة لا معنى لها بدون الانسان ، و ان القيمة هى التى يخلعها الإنسان على الشئ ، كان لزاما علينا أن نتناول مفهوم الانسانية .

ثانيا : مفهوم الإنسانية :

تتعدد الآراء و تتباين المواقف فيما يتعلق بالالفاظ التى ينضوى تعريفنا لها على العديد من المعانى ، و من الالفاظ نجد لفظ « انسانية » ليس له معنى محدد

متفق عليه . و لذا نجد « بيرى » عند استخدامه للفظ « انسانية » وجد لزاما عليه أن يقدم فى البداية تعريفا محدداً ، يعد بمثابة المعنى الذى يستخدم فى نطاقه لفظ إنسانية . و عند تصفح « بيرى » للمعاجم و جد أن لفظ « إنسانية » يختلف استخدامه من معجم الى آخر . ففى معجم وجد أن لفظ « إنسانية » يعنى المعرفة الكلاسيكية ، القديمة و الأدب العلمانى باعتباره مختلفا عن المعرفة اللاهوتية . وعندما بحث فى معجم آخر وجد أن لفظ « إنسانية » يعنى المعرفة المهتمة بتهذيب الإنسان فى مقابل العلوم الطبيعية التى تهتم بالنواحى العقلية و تعمل على نموها . و لقد قام الباحث بالاطلاع على أكثر من معجم [١٠] و وجد أن تلك المعاجم بشكل عام تكاد تتفق على أن لفظ إنسانية يعنى أن تقدم الانسانية وخلاصها لن يتحقق الا بالجهد الإنسانى و هو رأى يعتبر على النقيض تماما من المعتقد المسيحى الذى يؤكد على أن الإنسانية ليس فى مقدورها أن تحقق التقدم أو تصل الى خلاصها الا من خلال اعتقادها بالله . و ان لفظ انسانية أخذ معنى محدداً فى عصر النهضة الا و هو الاعتداد بالعقل الإنسانى و تجاوز الجمود الذى اصاب الانسانية فى العصور الوسطى ، و لن يتسنى ذلك الا بالتخلص من سلطة الكنيسة و العودة الى القديم المتمثل فى الفكر السوفسطائى دون تكراره ، و احياء الوسائل التى ادت بهم الى التقدم و اقامة حضارة وتطويرها.

و هكذا بعد أن حددنا ما تعنيه لفظ انسانية و أكدنا على تعدد الرؤى والمواقف ، و جدنا لزاما علينا أن نحدد ما تعنية الإنسانية من خلال وجه نظر «بيرى » ، فنجده يذهب الى أن الإنسانية « تشمل جميع المؤثرات المؤدية الى الحرية ، فيجب ألا تستخدم كاسم يطلق على مجموعة محددة من المعرفة ، أو على مؤسسات انسانية معينة بل ان استخدامها لتحديد شرط معين للحرية التى قد تساعد على خلقها . و معنى الانسانية يتفق مع ذلك الشرط . و لفظ «مؤثر» يشير الى أن الحرية التى أقصدها فى تعريفى ليست سمة فطرية أو ميتافيزيقية ، بل

هى احتمال للتطور الإنسانى الذى يتم من خلال التفاعل مع البيئة . و لن يتم تحقيق ذلك التطور اعتمادا على سمات سلفية أو على مصادفات عبقرية ، بل يتحقق ذلك فى نطاق العوامل التى يستند عليها الأفراد فى صنع أنفسهم على الصورة التى هم عليها » (١١) .

ولكن علينا أن نعى تماما أن الحرية التى يقصدها « بيرى » هى الحرية الإجتماعية ، و على الرغم من اعترافه بأن الحرية الإجتماعية لها معانى متعددة و استخدامات متباينة ، لكن يظل الفيلسوف هو المعيار الأوحد الذى يحدد ما يعنيه اللفظ الذى يستخدمه. و لذا نجد « بيرى » يذهب الى أن الحرية الإجتماعية لديه تعنى الاختيار المستنير ، بمعنى السلوك الذى تكون مقدماته واضحة و محددة تحل محل العادة و الفعل المنعكس . و يؤكد « بيرى » على أن ما أذهب اليه يتفق مع ما يقصده « مونتانى » فى وصفه للتربية التحررية بقوله : على المربى أن يجعل تلميذه يغربل كل شئ و الا يقف موقفا سلبيا استناداً الى سلطة علمية دون البحث و التدقيق . لا تجعل المبادئ الخاصة بأرسطو و الرواقيين و الأبقوريين تصبح مبادئه . و لكن على المربى أن يترك تلك الآراء مطروحة أمام تلميذه ليختار من بينها . فالحمقى هم الذين يثبتون على رأى و يتمسكون به ، ذلك أنه اذا تعرف على آراء (زينوفون) ، (أفلاطون) بعقله ، فلن تظل بعد ذلك تلك الآراء آراءهما بل تصبح عندئذ آراءه ... أن النحل يصنع العسل من الرحيق الذى اختلسه من هذه الزهرة او تلك و قد أصبح ملكا له برمته . إنه لم يعد رحيقا و لا عطراً ،و هكذا الأجزاء التى يتم استعارتها من الغير ، انها تنصهر لديه حتى تصبح معرفته تماما .

و هكذا بعد أن أشرنا الى رأى (مونتانى) فى التربية التحررية و وجدنا تركيزه على جعل الانسان دائما يحترم عقله و تفكيره و أن لا تقبل الآراء بدون تمحيص أى أنه يريد أن يتعود الإنسان على الاختيار و التفكير بحرية ، و ان لا يظل عبداً لمفاهيم و آراء بعينها . و حتى يتسنى للإنسان ذلك يتوقف على

«المدى الذى تصل اليه حرية الإنسان وذلك يعنى ممارسته للاختيار المستنير الذى يعتمد فى الأساس على المدى الذى يكون عارفا بإمكانياته ... فالحرية الإجتماعية تتناسب مع مساحة الاختيارات . و لذا فإن المعرفة هى الشرط الأساسى للحرية الاجتماعية . و اذا اردنا أن ند عم الحرية الإجتماعية فمن المحتم توسيع المعرفة الإنسانية بما يحدث فى العالم » (١٢) .

و اذا كان الاختيار المستنير فى حاجة الى المعرفة ، فإنه ايضا فى حاجة الى الخيال . انطلاقا من أن المعرفة العقلية تقدم الى العقل اختيارات تعبر عن حقائق ، بينما يمكن الخيال العقل من التفكير فى موضوعات لا تعدو أن تكون احتمالات للحقائق . فالخيال بالنسبة للعقل الانسانى هو الأداة التى ينظر بها الى حد يتجاوز ما هو مفروض على الانسان من قبل ذاته ، و أن الخيال يعتبر على النقيض تماما من العادة ، و فى نفس الوقت لا يعترف بما هو مستحيل ، و ذلك فى نطاق القدرة الإنسانية على الاختراع . و المخيلة ، شأنها شأن التفكير فى حاجة دائما الى تنميتها و تغذيتها حتى يتسنى لها أن تقوم بالدور المنوط بها فى مساعدة الانسان و دفعة دائما على التقدم . و من المتفق عليه أن المخيله ، لعبت دوراً رئيسيا فى تقدم الإنسانية ، و ليس بخاف علينا ان التقدم الذى حققته الإنسانية فى كافة مناحى الحياة ، كان للمخيلة فيها دور رئيسى و مؤثر . وهكذا نجد أن الاختيار المستنير أو الحرية ترتبط ارتباطا ضروريا بالمخيلة . تمشيا مع أن الانسانية لن يتسنى لها أن تحقق تقدما إلا من خلال ممارسة الاختيار المستنير أو الحرية و لن يتجسد ذلك إلا بمدى مقدرة الانسان على توظيف المخيلة فى سبيل تحقيق ذلك الهدف .

و هكذا نجد أن الحرية الانسانية تميز الانسان بوصفة إنسانا . فالحرية الإجتماعية تحقق كرامة الإنسان ، و لن يكون الانسان انسانا الا بتمسكه بحريته . فالحرية هى حجر الزاوية و الأساسى فى احترامنا لإنسانيتنا . و لذا لا يستطيع انسان أن يدعى بأن الحرية هى ميزة يستأثر بها فردا أو فئة أو جماعة

بعينها ، بل هى خاصية انسانية تشكل الوجود الإنسانى ذاته و لا تعنى الحرية الإنعزالية و لكنها وثيقة الصلة بالمجتمع و تقوىٰ الروابط بين أفراده على أساس من الحب و التفاهم المشترك . و لذا فان ممارسة الانسان لحريته تجعله أكثر احساسا بالكبرياء لاعتداده بكرامته و شعوره بذاته ، و أن فى مقدرته تحقيق ما يصبو اليه داخل الاطار الإجتماعى الموجود فيه . و تلك الحرية ليست خاصية جزئية ولكنها شاملة ، ولذا نجد أن الاحساس بها مشترك ، و الإنسانية بأكملها مدعوة لممارستها ، حتى يظل الإنسان انسانا ، و يتمسك بالصفة التى تميزه بكونه انسانا الا و هى الحرية . و لذلك نجد أنه ليس بغريب أن « تؤكد المسيحية على أن الانسان هو غاية الخليقة ، و أن تميزه عن الخلائق الأخرى يكمن فى حريته»(١٣)

و هكذا نجد أن الانسان يكمن تميزه فى تمسكه بحريته ، و لكن هناك بعداً يجب علينا أن نركز عليه يتمثل ذلك البعد فى أن الإنسان لا يحيا بمفرده بشكل منعزل و لكنه يتواجد داخل المجتمع . و الإنسان بطبيعته كائن اجتماعى يؤثر و يتأثر بالآخرين . و الانسان ـ كما أشرنا سابقا ـ لا معنى لوجوده بل يفقد أهم صفة تميزه الا و هى كرامته ، فى حالة تنازله أو تهاونه فى حريته ، على نفس المنوال نستطيع أن نوكد على أن الإنسان لن يستطيع تحقيق أى تقدم إذا عاش منعزلاً ، بل ان تطور الإنسانية و تقدمها مرتبطا ارتباطا ضروريا بكونه كائنا اجتماعيا . و ليس بخاف علينا أنه فى فجر التاريخ لم يكن هناك فارق كبير بين الانسان و الحيوان فى أسلوب الحياة ، حتى أننا نستطيع أن نؤكد أن أول طائر قام ببناء عش لا يختلف عن آخر طائر قام ببناء عش له ، و يرجع الفارق الى أن الانسان اجتماعى و كل جيل يورث الجيل الآخر خبرته فى الحياة ، و أن التقدم الذى حققته الإنسانية بشكل عام لا نستطيع أن نرجعه الى عصر دون عصر أو جنس دون جنس ، و لكن تظل الحضارة الإنسانية هى ملك الانسانية قد ساهم فيها الانسان بصفته كائنا اجتماعيا . و هكذا نجد أن المجتمع بالنسبة للإنسان

يمثل دوراً رئيسيا فى تشكيل كيانه حتى اننا لا نستطيع أن نفرق بين الانسان وبين مجتمعه . و لكن لا يعنى هذا أن تذوب الفردية الانسانية فى الكيان الإجتماعى ، و لكن تظل للفردية تميزها و لها كيانها ، و أن علاقة التأثير والتأثر داخل المجتمع لا تعنى إجهاضا للفردية ، و لكن يظل للفردية تميزها مع استمرارها فى علاقتها الإجتماعية ، و تظل كرامة الإنسان فى تمسكه بالحرية . و لذا يؤكد « بيرى » على اننى ، « فى استطاعتى الاستفادة من توجيهات الآخرين ، طالما أن الاختيار قد تم . و لكن لا أستطيع أن اختار الا ما أجد له صدى بداخلى » (١٤) .

و هناك من الفلاسفة ما يؤكد على الطابع العضوى للدولة ، نجد ذلك واضحا فى تاريخ الفلسفة ابتداء من (افلاطون) حتى (هيجل) . و هذا الاتجاه يؤكد على أن مكانة الإنسان ترقى بقدر مشاركته فى كيان جماعى . وبالنسبة لمجموع الإنسانية فإن أعلى نمط للحياة يتمثل فى الولاء و التسليم بالحكم الصادر عن السلطة . و من المتفق عليه أن الحكم الصادرد عن السلطة لا يخرج عن كونه صادراً عن اناس داخل المجتمع ، و لكن الحكم فى النهاية لا يصدر عن جميع أفراد المجتمع ، بل من خلال بعض أفراد معينين يتميزون بكفاءات معينة ، و الحاكم شأنه فى ذلك شأن جميع البشر يتشاور مع بعض المقربين من المستشارين ثم فى النهاية يصدر قراراته ، و حتى فيما يتعلق بالديكتاتور فنجد أن ما يسيطر عليه هو أنه على أكبر قدر من التفتح و يتميز بصفات خارقة و قدرات خاصة تتجاوز أولئك الذين يقتصرون على تقبل قراراته والاذعان السلبى لها . و على الرغم من ذلك نجد ان الديكتاتور فى قراره نفسه يجد أن هذا الموقف لا يتسق مع الإنسانية و تمسكها بحريتها و قدرتها على المشاركة فى القرارات التى تحدد مصيرها . و لذا نجد ان الديكتاتور يذهب الى أن القرارات التى يصدرها تعبر عن الإرادة الحقيقية لدى اتباعه ، و من جهة أخرى يسخر كافة الوسائل و الامكانيات المتاحة لدية لحمل اتباعه على تقبل قراراته

بطريقة سلبية ايا كانت تلك القرارات بعد أن يغرس الولاء فيهم لتقبل كل ما يصدر عنه لمجرد انه صاحب القرار . و بالطبع فإن هذا الموقف الذى يمارسه الحاكم لن يمكن اتباعه من ممارسة الاختيار الحر . و كنا نعلم ان الحرية هى التى تجعل الانسان يقدر المسئولية و مشاركاً فى صنع القرار و تضع على عاتقه امكانية تحقيق التقدم . لأن الحرية ليست مجرد كلمة نرددها و لكنها أسلوب حياة يتعاون فية الجميع بالمشاركة فى تحمل المسئولية كاملة . و كما هو ثابت تاريخيا أن الديكتاتور الذى ينفرد بالقرار مهما كانت قدراته و امكانياته تظل امكانية الوقوع فى الخطأ الجسيم قائمة الذى لا يؤدى الى هلاكه فقط بل المجتمع من حوله ، و الشواهد التاريخية خير دليل على ما نؤكده . و لذا حاربت الإنسانية بكل ما تملك و تحملت الكثير حتى تسنى لأفراد المجتمع الحصول على الحرية التى أدت بهم الى المشاركة فى صنع القرارات . و لذا يؤكد « بيرى » على أن كرامة الإنسان فى حريته (١٥) .

و هكذا تظل الإنسانية فى حاجة دائما الى تحقيق التقدم و تجاوز العوائق التى تعترض طريقها و لن يتم ذلك الا باحترامنا للإنسان . و الإنسان لن يكون انسانا الا من خلال حريته التى بدونها لن نستطيع تمييزه عن الجماد . وللانسان مكانة متميزة فى فلسفة « بيرى » و كل كلمة يكتبها تؤكد احترامه للإنسانية وتقديرها ، و لكن لنا أن نتساءل ما هى الإنسانية التى يتمسك بها و يدعو الى احترامها و اجلالها ، بالطبع تلك الإنسانية القادرة على مواصلة الجهد والعمل من أجل تطوير الإنسانية ، و لن يتم ذلك الا من خلال مجهود متواصل ومتكامل يأخذ بعداً اجتماعيا يشترك فيه الجميع كلا على قدر استطاعته فى بيئة يسودها الحرية أو الاختيار المستنير .

و هنا نجد أنفسنا بإزاء تساؤل ، هل يعنى أن الاختيار المستنير أو الحرية يتعارض مع الدين لدى بيرى ؟ على اعتبار ان الدعوة الإنسانية بشكل عام قد اتهمت من قبل رجال الدين بأنها دعوة فى الأساس مناهضة للدين ، و تدعو الى انسانية جديدة لا ترتبط بالدين ، بل تنظر الى الدين على انه مسئول عن ضياع

الإنسانية ، و تحولها الى شبح لا حول لها و لا قوة . و ليس بخاف علينا أن الحرية الإنسانية تعنى التقدم فى كافة المجالات لأن الإنسان بدون الحرية لا معنى لوجوده ، وليس فى مقدورة تحقيق تقدم أو بناء حضارة و هكذا ينظر الى أصحاب الدعوة الإنسانية على أنهم أصحاب دعوة الى عدم احترام الدين ، و تحميله كافة صنوف العذاب و الاضطهاد و التخلف الذى أصاب الإنسانية فى العصور الوسطى فى المجتمع الأوربى . و لذا وجدنا من الضرورى أن نشير الى أن الدين لم يكن مسئولا عما حدث فى المجتمع الأوربى و لكن رجال الدين و تفسيرهم للدين والإتجاه العام السائد داخل المجتمع أدى الى التراجع و العجز الإنسانى عن تأسيس حضارة ، و من « الإنصاف أن نقول مع بيورى أن الاوضاع الاجتماعية فى العصر الوسيط كانت لا تلائم الروح العلمى الذى ينزع الى اكتشاف الحقيقة لذاتها ، و لم يكن من المعقول ـ فيما يبدو فى نظر بيورى ـ أن يبعث العلم من جديد لو ظلت هذه الأوضاع الإجتماعية قائمة فى القرن الثالث عشر و ما بعده. و معنى هذا أن العقائد التى كانت سائدة فى المدة التى تفصل الحضارة الحديثة عن الحضارة القديمة ، لم تكن السبب فى اعاقة احياء العلم وابتعاثه ، و كل ما تتحمله هذه العقائد من تبعات ، انما يقوم فى العوائق التى أقامتها فى وجه العلم حين هم بالإنبعاث و الظهور من جديد » (١٦) .

نعم هناك الكثير من الاتهامات التى توجه الى الدين و تحمله مسئولية ما حدث للمجتمع الغربى و فهم كثير من المفكرين الغربيين أن الدين لا يساعد على تقدم حضارة ، و لا يحترم حقوق الانسان ويضحى بالحرية الإنسانية ، ولكن لا يعنى هذا ، أن ذلك الموقف يمثل الموقف الوحيد . و لكننا نجد أن «بيرى » على الرغم من موقفه الإنسانى يؤكد على أن الدعوة الإنسانية لم تقم « ضد الدين ، كما أنها لم ترفض تفوق القيم الدينية على القيم العلمانية ، كما أنها لم تحقر من سلطة الدولة بل أنها سعت لإفساح مجال للحقوق الفردية فى الإطار الدينى و السياسى ـ و هكذا لم يكن المحرك الأساسى للحركة الإنسانية هو معارضة أحد أشكال المعرفة ، بل إنها تحترم كل أشكال المعرفة شريطة ان تكون

علما لا مجرد اعتقاد جامد متزمت » (١٧)

و هكذا نجد أن الدين ستظل مكانته متميزة لدى الإنسانية و موضوعاته تمس الوجود الإنسانى ، و كثيراً ما حاول الإنسان تقديم الاجابة عليها و لكن على الرغم من وجود الاديان ظلت الانسانية متباينة الآراء بين مؤيد و معارض للدين . و لكن من الثابت تاريخيا أن الايديولوجيات تؤسس حتى يقع فى ظننا انها رسخت و اصبحت نسيجاً اساسيا فى الحضارة الإنسانية و لكننا نجد انهيار تلك الايديولوجيات . و فى نفس الوقت نجد أن الدين قد انهار أو هكذا يخيل الى الانسان و لكن سرعان ما نجد أن أصحاب المعتقدات الدينية يتمسكون بمعتقداتهم و يظل للدين قدسيته التى عجز الإنسان عن تفسيرها سواء كان مؤيداً للدين أو رافضا فنجد الإنسان عاجزاً عن تقديم تفسير للدين و من أين أتى بهذه القوة « لقد وحد الدين الناس و فرق بينهم و أقام الدول و اسقطها وأثار أفظع الحروب ، و عارض بالعقل قوة المادة الهائلة باعتبار أنها عقبة لا يمكن تجاوزها . و لقد أثار فى ضمير الفرد الوانا من الصراع تشبه فى مأساتها الحروب بين الدول . لقد واجه الطبيعة و أخضعها ، وجعل الانسان سعيداً فى البؤس ، بائسا فى السعادة » (١٨) .

نعم سيظل للدين مكانته و ستظل الموضوعات التى يتناولها مطروحة للبحث بين الإنسانية . و بصرف النظر عن الاتفاق أو الاختلاف بشأن موضوعات الدين ، نجد أن المعتقد بديانة محددة يؤمن و عن عقيدة بالإجابات التى يقدمها له دينه . و على هذا لا تنكر الفلسفة الإنسانية ما فوق الطبيعة ، و لا يمكن أن تتجاهل موضوعات الدين التى تمس الحياة الإنسانية بكل هذا العمق .

ثالثا : الدين

أ - مفهوم الدين :

تتعدد الأديان و تختلف الإنسانية فى ارتباطها بالدين نتيجة اختلاف

الزمان و المكان ، و حتى أصحاب العقيدة الدينية الواحدة يختلفون فيما بينهم ، وتتعدد الإتجاهات و الرؤى ، على الرغم من ارتباطهم بديانة واحدة . و يظل تفسير الدين بشكل عام تفسيراً يرتبط بمصالح فئة بعينها تريد أن تخلع على وجودها قدسية خاصة و تتحدث تلك الفئة بلغة الدين ذاته بمعنى أنها لا تفهم الدين كمعتقد تتعدد فيه الرؤى و الإجتهادات و لكن تنصب تلك الفئة من ذاتها كمدافعة عن الدين ، حتى اننا نشعر من خلال موقفهم أن الاختلاف معهم ليس اختلافا فى الرأى بين فئة و أخرى داخل المعتقد الدينى و لكن اختلاف بين فئة و بين الدين ذاته متمثلا فى تلك الفئة . و منذ أن وجد الإنسان و عبر العصور المختلفة اعتنقت الإنسانية أدياناً متعددة ، و على الرغم من الحضارة التى وصلت اليها الإنسانية ظل للمعتقد الدينى قدسيته و ملامحة الخاصة التى يقف الإنسان عاجزاً عن تقديم تفسير لتلك السمة التى تميز الدين الا و هى القدسية التى تتجاوز الزمان و المكان ، و لذا فإن الدين لدى الإنسان « هو العقيدة العميقة والاهتمام بالمصير و القضاء و القدر و يحظى ذلك لدى الإنسان بدرجة كبيرة من القيمة . و سواء كانت النظرة بدائية أو حضارية فإن الدين ينظر اليه نظرة خاصة و يتعاملون معه على أنه شئ فوقوى لا نظير له » (١٩) .

و انطلاقا من تعدد الأديان ينعكس ذلك الموقف بالطبع على مفهوم الالوهية لدى الإنسان و على ذلك نجد أننا عندما نذكر الدين يتبادر الى الذهن مباشرة ارتباط ذلك الدين بالالوهية ، و فكرة الالوهية كما يؤكد « بيرى » ليست محددة فى معناها كنابليون أو واشنطن ، حيث يوجد اتفاق على معانى تلك الأسماء . و لذا يختلف مفهوم الالوهية من معتقد دينى الى معتقد آخر ، بل ان تصور الالوهية يختلف بين أصحاب المعتقد الدينى الواحد ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ان مفهوم الالوهية للانسان يختلف طبقا لعمره العقلى بمعنى الالوهية ليس لها معنى ثابت لدى الفرد على امتداد حياته ، حيث يتغير معناها مع تغير خبرته و ثقافته . وعندما يستخدم المسيحيون الارثوذكس كلمة

«اله» فانها ترتبط لديهم بمعتقداتهم المستوحاة من الانجيل المقدس الذى يدينون به . و يذهب « بيرى » الى أن الدين لا يرتبط بإله مدرك ، و على ذلك نجده ينظر الى أديان القبائل البدائية ، و الأغريق و الهنود والصينيين و أديان المصريين على انها ليست اديانا على الاطلاق . و نحن بدورنا نختلف مع هذا الموقف الذى يتخذه « بيرى » استناداً على وجه نظره الذى يوكد فيها على قيمة الدين للإنسانية . و حتى اذا كان هناك اختلاف فى وجهة النظر بين العصر الذى نعيش فيه و العصور السابقة لا يعنى ذلك اننا ننظر الى تلك العصور بنظرتنا نحن، و نسقط من حسابنا البعد الزمانى و المكانى . يظل الدين دينا اياً كان تصوره للالوهية و أيا كان موقفه . فدائما نجد أن الدين أو ما يتعامل معه صاحب المعتقد الدينى على أنه يمثل لديه الألوهية يأخذ طابعا مقدسا ، حتى و أن كان ذلك التصور يأخذ طابعا حسيا . و نجد ان الانسان على استعداد أن يضحى بحياته من أجل مفهومه للألوهية ، و لا يختلف فى ذلك معتقد دينى عن آخر سواء كان ذلك الاعتقاد بالألوهية حسياً أو مفارقاً . و نؤكد اختلافنا أيضا مع ما يذهب اليه « بيرى » من أن الدين لديه مرتبط بمعايير مسيحية الوهية . و لذانجد «بيرى» يذهب الى أن الشيوعية من خلال وجهة نظر الديانة المسيحية ضد الأديان ، ولكن من خلال وجهة نظر الشيوعية ينظرون الى الشيوعية على أنها دين بالرغم من سيطرة النظرة الاقتصادية . و نحن بالطبع لا نتفق مع تلك النظرة أيا كان مصدرها لأن الشيوعية تفتقر الى القدسية التى تبدو واضحة تماما فى الدين . بل ان الدعوة الاساسية لدى الشيوعية حتى يتسنى لها السيطرة و الوجود هى محاربة الأديان ، لأنها تمثل العائق الاساسى فى سبيل انتشار دعوتهم ، و لا يقف الأمر بالشيوعية عند هذا الحد ، بل ينظرون الى الأديان على أنها العائق فى سسبيل تقدم الانسانية . و لذا تختلف الشيوعية عن المسيحية فى أنها ترفض تماما فكرة الالوهية تلك الفكرة التى تعتبر ركيزة أساسية فى المسيحية . و موقف الشيوعية من الالوهية يتشابة مع موقف الديانة البوذية الرافضة لفكرة الالوهية . فهناك

اختلاف بين القيم التى تسعى اليها البوذية والتى تسعى اليها الشيوعية . فى الاتجاه الشيوعى الغاية المطلقة هى الاقتصاد و الهدف هو تحقيق القيمة المادية . بينما فى البوذية شأنها شأن أى معتقد دينى فإن العبادة و الزهد و الأمل فى الخلاص هى الغاية القصوى . و على ذلك فإن الدين يعنى التقديس [٢٠] وتقديس المادة فى الشيوعية يختلف عن التقديس فى الدين .

و السحر لا يمثل جوهر الدين و لكنه يعتبر شيئا عارضا و يعكس طوراً من أطوار المعرفة الإنسانية غير المحددة . فالمغنطة قبل أن تدخل فى نطاق العلم ويتعامل معها الانسان بمنهج علمى كانت سحراً ، و العلم بالنسبة للإنسان البدائى يبدو سحراً . و من الخطأ أن ننظر الى الدين على أنه مرتبط بالخرافات ويمثل طوراً من المعرفة الإنسانية البدائية . و ترتبط الأديان ارتباطا وثيقا بما وراء الطبيعة ، فالأديان تختلف فيما بينها و يظل صاحب كل معتقد دينى وثيق الصلة بديانته ـ و كما أشرنا سابقا ـ تختلف الأديان فيما بينها و ينعكس ذلك بالقطع على مفهوم الألوهية . و تختلف الأديان فى تعاملها مع الألوهية فهناك من الاديان ما يهتم بغضب الإله أو الآلهة ، و يحاولون من خلال معتقداتهم الدينية ومن خلال طقوس معينة الفوز برضا الاله أو الآلهة . و لكن بصفة عامة معظم الاديان تعد الأفراد بالخلاص و الوصول الى الحياة السرمدية الأبدية الخالية من الشر و الألم و فيها يعيش الإنسان فى نعيم دائم لا حدود له و يعجز الإنسان عن تخيلة . و لكن لا يعنى هذا أن الدين منفصل عن الحياة الإجتماعية و لكن يظل وثيق لاصلة بالمجتمع و متأثراً بالعلوم المتقدمة و كذلك متأثراً بالفلسفة[٢١] .

يؤكد « بيرى » على فائدة الدين لما له من قيمة تنعكس على سلوك الإنسان ، و يبدو الفرق واضحا بين صاحب المعتقد الدينى و بين المنكر للدين فى مواجهة الحياة و كيفية التعامل مع المصائب و الكوارث التى تواجهه. حيث نجد أن صاحب المعتقد الدينى أكثر ثباتا فى مواجهة الحياة و يبدو ذلك واضحا تماما فى أن منكر الدين ـ كما يؤكد بيرى ـ يحسد معتنقى الأديان على رباطه الجأش

و الهدوء فى حياتهم اليومية . و صاحب المعتقد الدينى لا يساعده معتقده فقط على تجاوز المصائب التى تحاصره ، بل يذهب « بيرى » الى أنه يهرب من الشلل المماثل (لهاملت) فى مسرحية شكسبير . و عدم اعتناق دين محدد هو فى الواقع عدم وجود الأمل ، و بالتالى يصاب الإنسان بالإحباط و اليأس فى مواجهة الحياة و امتدادا لما سبق فإن المعتقدات الدينية أمل المؤمن فى الحياة بل هى تمثل حياة المؤمن و التى تتصف بالسعادة نتيجة الصلابة التى تنعكس علس نفسيته من خلال معتقده . أن الدين يمثل لدى المتدين وجوده ذاته و القدرة على العمل والأمل فى المستقبل مهما كانت كم الكوارث التى تواجهه ، حيث يقع فى ظننا أنه أصبح بلا حياة ، و لكن سرعان ما يستمد المتدين من دينه القوة التى تجعله أكثر صلابه و أملا فى تجاوز تلك الكوارث . بل أن الانسان المتدين يتعامل مع تلك المصائب على أنها امتحان له فى الحياة الدنيا ، و لذا نجده دائما على استعداد لتقبل ما يواجهه و فى الوقت ذاته على ثقة من تحقيق الفوز و الخلاص فى النهاية . و هكذا نجد أن صاحب المعتقد الدينى على ثقة فى النصر الغائى والمحقق للخير الاعلى ، و لذلك نجده لا يتأثر بالهزيمة الأدنى المتمثلة فى الرغبات الدنيوية ، و كله أمل و ثقة فى تجاوز كافة الهزائم الدنيوية و تحقيق النصر الأعلى(٢٢) .

فالدين يرتبط بالكثير من الطقوس و لا سيما طقوس حب الإله ، و قد يمجد الإنسان الطقوس و يؤدى بذلك الى نسيانه للإله . و نجد ذلك فى العقيدة المسيحية حيث كان هناك كنائس و بعد ذلك أصبحت وظيفة الكنيسة هى الوظيفة الأساسية فى الدين ، وأدى ذلك الى الإحساس لدى البعض بالخطر داخل المعتقد المسيحى ، مما ترتب عليه ظهور حركة الإصلاح البروتستانتى ، التى سعت الى خلاص الأرواح فى كنف الدين ذاته بعيداً عن الوساطة و أصحاب الأهواء و المنافع الخاصة . فالدين يظل تفسيره مرتبطا برجال الدين ، و لذا تختلف المواقف و تتعدد الفرق داخل الديانة الواحدة . و هكذا فإن للدين قدسيته

و تأثيره على الانسان المتدين و لا سيما فى المسائل الأخلاقية . و ليس بخاف علينا إرتباط الدين بالأخلاق ، حتى ان البعض يذهب الى ان دعوة الدين فى الأساس هى دعوة اخلاقية . فالدين يتضمن الأخلاق و يمكن التعرف على ذلك من خلال الثقافات الدينية . فالديانة البوذية و الهندوكية تتمسك بالاحسان كطريق لخلاص الإنسان . و فى الديانة العبرية ممكن تحديد تعاليم الله و أحكام الصواب و السلوك السليم . و فى الديانة المسيحية فإن حب الجار لا ينفصل عن حب الله ، بل يتجاوز ذلك الى حب الإله نفسه ، و أن هذا الموقف يتخطى حدود الأخلاق لسعادة الإنسانية عامة (٢٣) .

فالدين يمد الأخلاق بالدافع ، و هذا الدافع يمثل فى الواقع حالة ضرورية و هامة فى الممارسة الأخلاقية . و عند اعتناق انسان لمعتقد دينى يتضمن ذلك موقفان أحدهما ترغيب من خلال الوعود و الهدايا و النعم التى تنتظره والآخر تهديد يتمثل فى العقاب و العذاب فى حالة عدم الالتزام بالاوامر الدينية . ويعترض « بيرى » على هذا الاسلوب المتبع لدى الاديان و لا سيما فى المسيحية و يعتبر هذا الموقف المتمثل فى الترغيب و التهديد لا يخرج عن كونه موقفا لايرقى الى احترام الانسان و تقديره و الثقة فى أنه يستطيع التوصل الى ذلك ، بعيداً عن التهديد أو الترغيب و يؤكد « بيرى » على أن ذلك الموقف يعنى أن الإنسان طفل لم يبلغ الرشد بعد . فالإنسان يجب عليه أن يتوصل الى أن هناك ظلماً و عدلاً قبل أن يأمرنا الدين بذلك . و نفس الموقف بالنسبة للإحسان ، على الانسان ان يكون محسنا قبل أن يأمرنا الدين بذلك . و يأمرنا الدين أيضا بأن نشارك بعضنا البعض فى السراء و الضراء و يجب على الانسان أن يفعل ذلك قبل أن يأمرنا الدين . و هكذا نجد أن « بيرى » على الرغم من ارتباطه بالدين ، ولا سيما المعتقد المسيحى ، لا يتعامل مع الدين كما يتعامل معه رجال الكنيسة و لكن نجد له موقفه الخاص . و يظل الفيلسوف عند تناوله كافة الموضوعات ولاسيما الدينية منها له مواقفة الخاصة . نعم للدين تأثير على حياة الإنسان

وبالتالى له تأثيره على القوانين و العرف الإجتماعى . و يترك الدين أثراً على كافة نواحى الحياة ، لأن الدين داخل المجتمع يشكل الوجدان الإنسانى و يترك أثره حتى و إن كان لا شعوريا على الإنسان داخل المجتمع ان فكرة التسامح فى الدين تمارس الآن فى المجتمعات المتقدمة و المتحضرة مما يؤكد الصلة الوثيقة بين الدين و المجتمع، و ان الإنسانية توصلت الى فكرة التسامح نتيجة للحروب الدينية، و من الثابت تاريخيا أن تميز فكرة معينة فى اية ديانة لا يقدر لها أن تنتشر و تسود إلا بنزاع دينى وصراع قد يأخذ هذا الصراع الشكل الدموى (٢٤) .

و من المتفق عليه ان اشرس الحروب هى الحروب الدينية ، لأن الدافع لديها كما يعتقد صاحب الديانة هو دافع مقدس . و على الرغم من التقدم والحضارة التى حققتها الإنسانية و السمة الظاهرة لبعض تلك المجتمعات أنها مجتمعات مدنية علمانية لا تقحم الدين فى الأمور السياسية ، و لكن عند اتخاذ موقفا سياسيا و ترغب القيادة السياسية فى شحذ الجمهور و التمسك بمبادئ بعينها ، نجدها تحاول جاهدة فى ايجاد سند دينى يعضد موقفها فى تهيئة المناخ العام للتمسك بمواقف بعينها . و أن تلك الحروب الدينية لها أثرها فى تقليل التخبط و الفوضى ، مما ينعكس على الإنسانية ، و اقتناعها بأن يكون هناك أحد الفئات أو أكثر فى حالة سلام أو على أقل تقدير لا شأن لهذه الفئات ببعضها البعض و تعيش فى وئام جنبا الى جنب . و على مر العصور هناك أشياء بعينها لايمكن فرضها مهما كانت الممارسات و الضغوط ، فالاضطهادات الدينية لاتؤدى الى شئ و لا تساعد فى إنتشار أفكار بعينها ، و لكن لا تجنى الإنسانية منها سوى الدمار . و الهدف الرئيسى من التسامح هو تقليل العنف و تهيئه المناخ لأن تعيش عدة طوائف معا بعيداً عن العنف الدينى و الاضطهاد . و على ذلك نجد ان لكل فئة حريتها فى أن تمارس طقوسها الدينية بعيداً عن أية مضايقات من فئة لأخرى مهما كان التباين بين تلك الفئة و غيرها من الفئات فى المعتقدات الدينية . فحرية الدين لدى الإنسانية هى أثمن ما وصلت اليه ، لأن

تلك الحرية تجنبها كثيراً من الدمار و الاضطرابات و الفوضى داخل المجتمع . لأن هناك حماساً لدى الإنسان للدفاع عن معتقدة الدينى و لا يقف الأمر عند هذا الحد بل يمتلك نفس الحماس فى مهاجمة دين آخر ، فإن لم يكن هناك تسامح وحرية فى أن يمارس الإنسان معتقدة الدينى فبنفس الحماس يكون هناك صدامات و اضطرابات قد تؤدى الى دمار المجتمع و تصيب أفراده بالشلل و عدم القدرة على التفكير . و لذا فإننا نجد أن الاديان دائما تؤكد على تمسك الإنسان بالفضائل و تدعو الى ترسيخ القيم و الإرتقاء بالسلوك الإنسانى و مساعدته على تجاوز كافة المصاعب و الاحباطات التى تحاصره فى الحياه من كل اتجاه . و لا نستطيع أن نقدم النقد للدين كما يؤكد « بيرى » على انه يتجاهل ا لمتطلبات الأخلاقية ، بل نجد أن الضوابط الأخلاقية و معايير الصواب و الخطأ داخل المجتمعات بشكل عام لها جذورها الدينية بشكل مباشر أو غير مباشر « فالدين ليس مهتما فى الحط من الأخلاق ، بل فى أعطاء التأكيد » (٢٥) ، و من خلال التأكيدات التى يقدمها الدين يساهم فى وضع أسس راسخة و ثابتة للقيم والمبادئ داخل المجتمع حتى اننا لا نكون مغاليين اذا ذهبنا الى أن الثوابت داخل المجتمعات غالبا ما تصطبغ بصيغة دينية .

وإذا كنا نجد أن اسقاطات « بيرى » على الاديان ، و الرؤية الراسخة لديه، و التى شكلت فكره الدينى قد نمت من خلال معتقدة أو على الأقل المعتقد السائد داخل مجتمعه و الذى تربى و عاش فى كنفه الا و هو المعتقد المسيحى ، و لذا نجده دائما يقدم الأدلة التى تعضد موقفه من خلال الديانة المسيحية . ولكن لا يعنى هذا انه يتناول الديانة المسيحية ، كما يتناولها رجال الدين من منطلق الدفاع عن كل ما تؤيده الدياناه المسيحية ، و لكن كفيلسوف نجده دائما يتناول المسيحية ـ كما يتم ذلك دائما لدى الفلاسفة بشكل عام ـ من وجهة نظر نقدية قد يتفق فيها مع المعتقد المسيحى فى بعض الرؤى و المواقف وقد يعترض ايضا على بعض الرؤى داخل الديانة المسيحية . و لذلك نجد أن ديانة أرضية تؤمن بما

وراء الطبيعة مثل المسيحية تواجه بأزمة و ذلك فيما يتعلق بمفهوم السعادة . حيث أن المنظور الدنيوى للسعادة يختلف تماماً عن المنظور المسيحى ، فالسعادة الدنيوية سعادة وقتية زائلة ، أما السعادة القصوى فهى سعادة تعجز الطبيعة الإنسانية ، عند تخيلها ، لما تتضمنه من كنوز الخير و الصفاء و النشوة والحب و الاتحاد . و هناك أيضا الفارق الشاسع الذى لا يستطيع الإنسان تجاوزه بين الحياة الدنيا الفانية وبين الحياة الأخرى الباقية الكاملة . فالإنسان فى الحياة الدنيا تحاصره المشاكل وهموم و النقص يسيطر على كل شئ و الشر هو السائد حتى السعادة الدنيوية ليست بسعادة تذكر لأنها دائما سعادة ناقصة زائلة لا يشعر الإنسان من خلالها بالارتواء. أما الحياة الأخرى الباقية فهى حياة خالية تماما من المشاكل و الهموم و الكمال يسيطر على كل شئ و الشر لا وجود له ، والسعادة ليست ناقصة بل هى سعادة كاملة ، يعجز الإنسان الناقص فى هذه الدنيا عن ادراك تلك السعادة الكاملة وكأن لسان حالهم يؤكد ، كيف للفانى الناقص إدراك السرمدى الكامل ؟ و لذا نجد « بيرى » يفهم ما تعنيه السعادة فى الحياة الدنيا و لكنه عاجز عن فهم السعادة فى الحياة الأخرى ، و هى حياة الكمال ، و لذا نجده يتساءل « ماذا يفعل الإنسان هناك ؟ و كيف يسير الإنسان على الذهب بالأقدام ؟ و الحب هو مشاركة المحبوب فى اهتماماته ، و لكن كيف يكون الحب لو أن الشخص المحبوب ليس لديه ميول » (٢٦) .

و هكذا نجد أن المسيحية قد نجحت فى تقديم الصورة التى يكون عليها عقاب المذنبين و لكنها فى الوقت نفسه لم تنجح على نفس الدرجة فى إقناعنا بالسعادة التى يجنيها المحسنون و يذهب « بيرى » الى انه فى بعض القصص نجد أن البعض يميل الى النار أكثر من ميله الى الجنة و نعيمها . و هذا الإتجاه لم يكن شائعا فى العصور الوسطى ، حيث كانت تسيطر الكنيسة على كافة نواحى الحياة ، و حتى ان كان هناك بعض الأراء المخالفة للعقيدة المسيحية حينئذ لم تكن لتجرؤ على الاعتراف بهذا حيث تسلط الكنيسة و عدم احترامها للرأى

الآخر ، و وأدها لكل فكر يخالف المعتقد المسيحى . لذا نجد منذ عصر النهضة أخذت مكانة الكنيسة تتراجع ، و أخذ الإنسان الغربى يعبر عن فكرة بحرية فنجد فى « الجحيم » لدانتى كانت أكثر اقناعا من النعيم ، إنطلاقا من أن الالام فى الجحيم يستطيع الإنسان تفهمها من خلال الآلام التى يعيشها فى الحياة الدنيا ، و لكن السعادة فى الجنة هى سعادة لا يمكن وصفها و لا يستطيع الانسان مهما كان خياله خصب أن يتعرف على النعيم الذى يعيشه الإنسان فى الجنة .

و لكن لا يعنى هذا أن الجميع يتفق على ذلك التفسير ، حيث ان الاقتناع بالنسبة للآلام يكون أكثر رسوخا و تفهما من قبل منكرى المعتقد المسيحى و لكن بالنسبة للمرتبط بالمعتقد المسيحى فهو يؤكد على تفهمه التام للنعيم ، على اعتبار أن ماينطبق على الجحيم ينطبق أيضا على النعيم .

ب - الخير و الشر :

لقد سيطرت قضية الشر على الإنسانية و أخذت المواقف تتباين ، و يختلف مفهوم الشر من مجتمع يرتبط بمعتقد دينى الى مجتمع لا يرتبط بنفس المعتقد . و نجد موقف الإنسان من قضية الشر موقفا غير محدد المعالم ، فهناك من ذهب الى أن الشر لا وجود له و ما يتراءى للإنسان على أنه شر هو ليس كذلك ولكن نظرة الإنسان الناقصة تجعله ينظر تلك النظرة ، و نجد من يذهب الى أن العالم ليس الا عالما شريراً و لا وجود للخير ، و حتى إذا تصرف انسان تصرفاً خيراً ليس من أجل الخير و لكن من أجل المصلحة الذاتية ، فالأنانية هى التى تسيطر على السلوك الإنسانى ، و هناك من يذهب الى أن الخير موجود و كذلك الشر و ان لكليهما وجود حقيقى .

و القضية من المنطلق الدينى معقدة و متشابكة الأطراف ، على اعتبار أن المعتقد المسيحى يؤمن بالإله الكامل الذى أوجد كل شئ من العدم و بالتالى مسئول مسئولية كاملة عما يحدث فى العالم . و فى الوقت ذاته يتعرض الانسان

للشر داخل العالم الذى يحاصره من كل اتجاه و يحلم دائما بالخير و الحب الشامل . و هنا نجد انفسنا بإذاء عدة تساؤلات ، ما مصدر الشر ؟ و هل الإله مسئول عما يحدث فى العالم من شر ؟ و هل تتعارض خيرية الإله المطلقة مع ما يحدث فى العالم من شر ؟ و هنا تتعدد المواقف و الرؤى و تتباين الاتجاهات داخل المعتقد المسيحى ، فنجد من يذهب الى ان الإله مسئول عما يحدث فى العالم و أن لاتعارض مطلقاً بين قدرة الإله المطلقة و وجود الشر ، وهناك من يذهب إلى أن الإنسان هو المسئول عما يحدث فى العالم من شر ، واتجاه ثالث يذهب الى أن من يعرف الحياة يدرك تماما أن هناك خيراً تماما مثل وجود الشر و أن الشر هو الرفيق الثابت للخير ، و أن الشر فى جوهره مثل الخير.

و هنا لزاما علينا أن نتعرف على موقف « بيرى » من قضية الشر ، فنجده يؤكد على أنها من المسائل الجدلية ، التى تتعدد فيها المواقف . لذا فهو مجال للجدل ، و أنه شئ حقيقى أن لكل خير شر يمكننا التعرف عليه و الاحاطة به . و هذا يؤكد على استحالة وجود الخير بدون احتمالية وجود الشر ، و لكن لايعنى احتمالية الشر أن هناك حاجة الى ادراكه . حتى الادراك ذاته يتوقف على الإنسان المدرك لذلك الشر . و على ذلك فهناك أنواع معينة من الخير تستلزم وجود الشر . فالالم ليس شراً بينما القوة فى تحمل ذلك الالم . و على ذلك فإن العوائق و العقبات ليست شراً ، لأن الخير لا يبنى على النجاح و لكن فى الكفاح، و على نفس المنوال من الممكن أن يقال أن الخطيئة ليست شراً لأنها تتطلب التوبة و العدل (٢٧) .

و هكذا نجد « بيرى » يحاول جاهداً تقديم تفسير لمشكلة الشر ، حيث يذهب الى أن الشر موجود كما أن الخير أيضا موجود فى العالم ، و ناتج القضية بينهما متروك للرغبة المتضمنة بواسطة الإنسان . و المتحكم فى ذلك الموقف المتعلق بالخير و الشر لدى الإنسان يظل مرتبطا بمسألة أساسية و هى التفاؤل والتشاؤم . فالتفاؤل و التشاؤم هى مسميات لمواقف عملية مرتبطة ارتباطا وثيقا

بالأمل أو عدم وجود الأمل بالمستقبل . و دائما تسيطر على الأنسانية رغبة ملحة الا و هى الرغبة فى الأفضل و الخوف من الأسوأ . و هناك من الأدلة ما يؤكد كلا الموقفين وذلك فيما يتعلق بالأمل و عدم وجود الأمل . فالمتشائم يركز دائما على الميول السلبية ، و على فشل الميول الإيجابية ، و يجد المتشائم دليلا كافيا على ذلك من خلال الحرمان و الحروب و الجشع و المرض ، و يتمسك دائما بأن الشر هى السمة الاساسية ، و ان الخير لا وجود له ، و أن وجد الخير فإنه لا يخرج عن كونه ومضات فى حياة الإنسان . فالتفاؤل مثل التشاؤم مبنى على الاختيار الإنسانى فهناك خير يبهر الإنسان حتى أنه يعجز عن إدراك الشر ، وكأن الشر لا وجودله.

و هذا يؤكد أن هناك تطرفا فى كلا الموقفين فيذهب المتفائل الى أن الخير هو السمة الأساسية للوجود ، و على العكس من ذلك يذهب المتشائم الى ان الشر هو السمة الأساسية و ما يتراءى لنا من خير لا يخرج عن كونه سرابا . وهنا نجد انفسنا أمام متناقضات و تعدد الرؤى ازاء الخير و الشر . فهناك من يتمسك بالخير و يؤكد على أن العالم خير ، و فى المقابل هناك من يتمسك بالشر و يؤكد على أن السمة الأساسية للعالم هى الشر ، و ما يجعل الإنسان يختار موقفا سواء كان موقفا متحيزا للخير أو للشر هو مزاجه الخاص ، و طبيعة شخصيته ، بل ان الأمر أيضا مرتبط بحالته اللحظية ازاء موقف بعينه (٢٨) .

و نحن بدورنا نتفق فى ذلك مع « بيرى » مع أن العالم ليس بهذه الصورة المتطرفة التى قد تتراءى لدى البعض أنها خير محض و لدى البعض الآخر أنها شر محض ، و ان تلك المواقف تتعارض مع الطبيعة الإنسانية دائما الراغبة فى الأفضل و تحقيق التقدم . نعم هناك شر داخل العالم و فى الوقت ذاته يوجد الخير و لكن تظل مسئولية الإنسان الأساسية هى كيفية الانتصار دائما للخير والعمل على تجاوز الشر على قدر استطاعة الانسانية . فهناك موقف ثالث يختلف مع الموقف الأول الذى يرى أن العالم خير و يختلف أيضا مع الموقف الثانى الذى

يذهب الى أن العالم شر ، بل هو موقف يجمع بين شر الماضى و الحاضر مع انجاز أفضل فى المستقبل من أجل الانتصار للخير . ذلك الموقف هو أقرب المواقف التى تجد صدى لها بداخل الانسان و هذا الموقف كما يؤكد عليه «بيرى » هو موقف دينى و يعنى لديه « الإرتقائية » . و أنه من خلال مراعاة للظروف و الاستفادة من مرونتها ، فإننا نستطيع التأكيد على قيمة الإرتقائية . فنظرية القيم لا تؤكد و لا تضمن له النصر ، و لكنها توجهه فى اختياره الذى سوف يسير على أساسه . و يعد هذا الموقف من وجهة نظر التشاؤميين تفاؤلا ويصرح بالكثير جداً ، و من وجهة نظر المتفائلين تشاؤما ، لأنه يصرح بالقليل جداً . و لكن فى الإرتقائية ليس من السهل أن تكون متفائلا بينما المتشائم يكون دائما مسئولا عن موقفه . فالإنسان دائما يواجه بمواقف و مشكلات و علية أن يتخذ موقفا ايجابيا و يبتعد دائما عن السلبية ، لأن الإنسانية يقع على عاتقها مسئولية تقدم العالم و تطوره . و الإنسانية بقدر ما تحقق تقدما قد تخفق أحيانا ولكن لا يعنى هذا التوقف عن العمل بحجة الفشل الذى قد يصيب الانسانية أحيانا ، لأن الواقع يؤكد على « أن الكائن المؤله هو وحده الذى لا يمكن أن يفشل أو يتعثر لأنه كائنا قويا ذو قدرة مطلقة » (٢٩) .

و على ذلك فإن الإرتقائية هى طريق الإنسانية للعمل فى مواجهة الحياة ، لأنها أى الإرتقائية تعترف بالهزيمة كما تعترف بالنصر ، و بقدر العمل و الجدية بقدر نجاح الإنسان فى تحقيق التقدم . الإرتقائية لا تختار الطريق السهل حقا ، أنها ترفض أن يكون هنا طريق سهل ، فليس من الواضح أن يكون هناك انتصار مؤكد . الارتقائية تتقبل كل شئ بعيون مفتوحة و تعترف بقدر وجود الأمل فهناك أيضا الاحباطات الكثيرة التى تحاصر الإنسان ، و لذا يتطلب ذلك احترام العمل و الجدية و الشجاعة فى التغلب على كل ما يواجه الإنسانية من صعاب ومشكلات . الإرتقائية هى نظرة متواضعة اذا تمت مقارنتها بالتفاؤل الدينى ، على اعتبار ان الموقف الدينى هو موقف محدد ، و ان الكلمة النهائية قد تحققت

فى الوجود ، و أن العالم يسيطر عليه الكمال ، و الوجود ليس فيه نقص او شر ، و أن النقص أو الشر ليس كذلك ، و لكن نظرة الإنسانية الجزئية الناقصة هى التى أدت الى مثل هذه التفسيرات . بالطبع هذا الموقف لا يخرج عن كونه موقفا جامداً لا يشجع الانسان على العمل و السعى الجاد لتحقيق التقدم و خلاص الإنسانية لأنه لا يعترف بالاحتمالات . و أن هذا الموقف الذى يأخذه « بيرى » نجد أنه متأثر فى هذا المجال باستاذة « وليم جيمس » الذى يذهب الى أن المتفائل يؤكد على أن خلاص العالم أمر حتمى و المعتقد فى التشاؤم يؤكد عكس ذلك، و الموقف الحقيقى الذى ينتصر له « جيمس » هو الارتقائية ذلك الموقف الذى يؤكد على أن خلاص العالم أمر ممكن و لكن يتوقف هذا على الإنسان و على مدى تصميمه و اصراره « لأن الإرتقائية تتميز بموقف خاص من الخلاص من حيث انها تعامله لا على إنه واجب الوجود و لا على انه مستحيل و انما كإمكان يتحول الى احتمال أكثر فأكثر كلما أصبحت الظروف الفعلية للخلاص أكبر عدداً ، و من المؤكد ان البراجماتية تتجه نحو الإرتقائية . أن خلاص العالم ليس مستحيلا بل أن بعض شروط خلاصة موجودة و البراجماتية تتعامل مع هذا كحقيقة و اذا قدر للشروط الباقية أن تأتى فإن الخلاص يصبح حقيقة » [٣٠] .

الخاتمة

للإنسان مكانة متميزة فى فلسفة « بيرى» و كل شئ يتوقف عليه . و بناء عليه فإن قيمة الشئ مرتبطة بالإهتمامات الإنسانية ، فإذا وجد شئ لا يستحوذ على اهتمام الإنسان فلا معنى لوجودة و يصبح غير ذى قيمة و امتداداً لما سبق فالقيمة لا معنى لها بدون الإنسان ، و من خلاله يتحدد معناها إذن القيمة انسانية .

و الإنسان لا معنى لوجوده اذا عاش منعزلا ، بل ان تقدم الإنسانية مرتبط ارتباطا ضروريا بكونه كائنا إجتماعيا . و فى الوقت ذاته فإن الإنسان يصبح وجودة غير ذى معنى و يفقد ذاته فى حالة تنازلة عن حريته أو حتى التهاون فيها. لأن الحرية تعنى كرامة الإنسان ، و بدونها لا يتسنى للإنسان تحقيق تقدم أو بناء حضارة ، إذن فالحرية و الإنسانية وجهان لعملة واحدة .

و هكذا نجد أن « بيرى » صاحب دعوة إنسانية-و كثيراً ما يتهم أصحاب تلك الدعوة بأن موقفهم معارض للدين . و لكن هذا الموقف من الخطأ تعميمه ، على اعتبار أن الإنسان ـ كما ذكرنا سابقا ـ هو المعيار الأساسى ، و بناء على موقفه تحدد القيمة ، فإذا كان الدين يمثل نسيجاً أساسياً فى الحضارة ، و يمس الحياة الإنسانية بكل عمق ، فإن الفلسفة الإنسانية لا تنكر موضوعات الدين لتأثيرها على الإنسان و استحواذها على اهتمامه . و الكلمة الأخيرة فى فلسفة «بيرى » تؤكد أحترامه للعلم و على أن الإنسانية إذا أرادت أن تحقق تقدما أن تعى تماما أن المنهج العلمى يمتلك المقومات التى تساعد الإنسان على تجاوز كثير من المشاكل و إيجاد الحل المناسب . فالعلم يؤكد أن العالم لا تسيطر عليه الحتمية ولكن يؤكد أن الكلمة النهائية تظل للإحتمالية لأن الحتمية ، تعنى الجمود و أنه ليس فى الإمكان أبدع مما هو قائم ، لكن الإحتمالية ، تنتصر دائما للإنسانية ومسئوليتها الكاملة لتحقيق التقدم لأن الكلمة الأخيرة ستظل للإنسان و بقدر امتلاكه للمنهج العلمى بقدر تحقيق التقدم و ايجاد حلا مناسبا للمشكلات التى تواجه « لأن العلم ليس له نهاية لأنه يؤكد دائما على الملاحظة و التجديد والاختراع . و كل الأبحاث معرضة للتنقيح . و الكلمة الأخيرة ليست هى الأخيرة ، و الاحتمال موجود مادام هناك علم » (٣١)

المراجع

1 - Perry , Ralph Barton-Realms of Value-harved university press - 1954 , PP , 2, 3

2 - Ibid , P ,4

3 - Ibid , P , 5

4 - Ibid , P , 7

5 - Ibid , P , 9

6 - Ibid , P , 10

7 - Ibid , P , 21

8 - James , W , the will to Believe , Iongmans , Green and Co , 1927 , PP , 148 , 149

9 - James , W , Pragmatism , Iongmans , Green and Co , 1949 , P , 55

١٠ – د . مراد وهبة : المعجم الفلسفى ـ دار الثقافة الجديدة ـ الطبعة الثالثة ـ القاهرة ١٩٧٩ ص ٥٦ .

د . إبراهيم مدكور : « تصدير » المعجم الفلسفى ـ مجمع اللغة العربية ـ القاهرة ـ ١٩٧٩ ص ١٧٤ .

Paul Edwards , Edition Chief - The Encyclopedia of philosophy - Volume three - Macmillan publishing Co , Inc . , the Free press - New York - Collier Macmillan publishery , London , 1972 , P , 70

11 - Perry , Ralph Barton - The meaning of the Humanities - Princeton university press , 1936 , P , 4

12 - Ibid , P , 6

13 - Ibid , P , 12

14 - Ibid , P , 14

15 - Ibid , P, 15

١٦ ـ د . توفيق الطويل : قصة النزاع بين الدين و الفلسفة ـ مكتبة الآداب بالجماميز ـ ١٩٤٧ ، . ص ٨٦ ، ٨٧ .

17 - Perry , Ralph Barton , The meaning of The Humanities ,p , 17

١٨ ـ إميل بوترو : العلم و الدين فى الفلسفة المعاصرة ـ ترجمة د . أحمد فؤاد الأهوانى ـ الهيئة المصرية العامة للكتابة « بدون تاريخ » ص٢٩٦ـ ٢٩٧ .

19 - perry , Ralph Barton , Realms of Value , P 463

20 - Ibid , P , 964

21 - Ibid , P , 467

22 - Ibid , P , 469

23 - Ibid , P , 471

24 - Ibid , P , 473

25 - Ibid , P , 475

26 - Ibid , P , 477

27 - Ibid , P , 484

28 - Ibid , P , 486

29 - Ibid , P , 487

30 - James , W , Pragmatism , P , 286

31 - Perry , Ralph , Barton , Realms of Value , P , 490